الأحلام

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نايل

مدرس الفلسفة بمدرسة شبين الكوم الثانوية

اختلفت نظرة الناس إلى الحلم فمنهم من يؤمن به إيماناً قوياً لدرجة أنهم ينسبون إليه القدرة على التنبؤ بالمستقبل ؛ ومنهم من يرى أن الحلم ظاهرة فارغة خالية من المعنى ، وكلا الرأيين لا يطمئن إليهما النظر العلمى السليم لما فيهما من تطرف . وسنقتصر فى بحثنا على عرض آراء فرويد مع الإشارة إلى آراء العلماء الآخرين الذين نقدوه من أمثال يونج وأدلر ووليم براون وصمويل لوى . فبهذه الطريقة يكون فى قدرتنا أن نصل إلى حكم سليم على الدوافع التى كانت سبباً فى حدوث الحلم والمعنى الذى يهدف إليه .

يرى فرويد أن كل حلم ما هو إلا تحقيق لرغبة ما ، وغالباً ما تكون مكبوتة فى اللاشعور . والأسلوب الذى يتخذه اللاشعور فى تحقيق رغباته ليس أسلوباً سافراً صريحاً بل هو أسلوب تنكرى أشبه ما يكون باللغة الهيروغليفية . وهذا الأسلوب يخضع لقوانين معقدة ومتنوعة فى نفس الوقت . ولعل هذا هو السبب فى أن القانون العام الذى تسير وفقاً له الأحلام قد فاتنا اكتشافه فى الأيام الماضية ، وفى إنكار العلماء لكل مغزى أو دلالة للحلم . ولعل الدافع إلى هذه النظرة يرجع إلى تركيز المجهود فى تلك الصورة المشوهة التى يظهر بها الحلم أو إلى الصورة المضطربة التى يقص بها الحالم حلمه . ولكن الأمر فى الأحلام ليس مقصوراً على تلك الصورة المضطربة التى يظهر بها الحلم أو المضمون الصريح إذا ما استعملنا اللغة الفنية . وإنما الأمر أعمق من هذا بكثير . فهذا المضمون الصريح يناظره المضمون الكامن أى الأفكار المخبوءة التى تنكشف عن طريق التحليل . ويتكون المضمون الصريح للحلم من الذكريات القديمة للحالم مرتبة ترتيباً عشوائياً وفقاً لأغلب قوانين التداعى تفاهة . أما قوانين الربط العقلية ، خاصة قانون السببية فتكاد تكون معطلة وتكون الغلبة لقوانين أكثر تفاهة مثل الاقتران والتشابه .

ويمكننا القول — كقاعدة عامة — إن الذكريات التى تستثار بصورة أكثر شيوعاً من غيرها هى ذكريات يوم الحلم — أى اليوم الذى يقع فى مسائه الحلم — وذكريات الطفولة المبكرة . ولقد طرب فرويد كثيراً لظهور ذكريات الطفولة المبكرة فى الحلم ويقول (١) « إن فقدان الذاكرة بالنسبة لحوادث الطفولة المبكرة يمكن أن نتغلب على معظمها عن طريق تفسيرنا للأحلام » .وذكريات يوم الحلم تكون عنصراً أساسياً من كل حـلم بلا استثناء . والاضطرابات الجسمية الحادثة سواء أكانت عن طريق أعضاء الحس الخارجية أم الداخلية تتجسم فى الحلم . بيد أن هذا التجسم يكون مقنعاً . ولكن ما الدور الذى تقوم به الذكريات والإحساسات التى يشعر بها النائم فى تكوين الحلم ؟ علينا أن نفهم بادئ ذى بدء أن فرويد يقصر الوظيفة الفعالة فى نشوء الحلم على الرغبه ، وكل ما تقوم به ذكريات يوم الحلم والإحساسات التى يشعر بها النائم إنما هو تقديم المواد التى ينسج حولها الحلم الرغبة . وإذا ما عبرنا عن رأى فرويد بعبارة أرسطاطاليسية فإننا نقول إن الرغبة هى العلة الفاعلة فى نشوء الحلم ، وإن الذكريات والإحساسات ليست شيئاً أكثر من العلة المادية ويقول فرويد « إن للحلم قيمته الذاتية كفعل نفسى وإن الرغبة هى التى تزود الحلم بالدافع لصياغته . وإن خبرات اليوم السابق لوقوع الحلم هى التى تمد الحلم بالمواد الأكثر وضوحاً »(٢) وهاك مثالا لتحليل حلم يكشف عن أن المنبهات الحسية إنما يحولها الحلم إلى عناصر تنسق مع مضمونه ، وهذا الحلم يدور حول الأثر الذى يحدثه دوى المدافع أثناء غارات الألمان على مدينة لندن فى الحرب العالمية الأولى . فلقد رأى (٣) مريض يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً فى نومه أن مركباً محملا بالنساء والأطفال يحاول الهرب تحت نيران المدافع . وكان مكان الحادثة الهند أيام الثورة . وفكر الحالم فى نشر أنباء المتاعب الفظيعة التى يقاسيها هؤلاء الناس فى الصحف الإنكليزية دون إزعاج لشعور المدنيين . وتغير منظر الحلم بعد ذلك ، وبدأ الحالم يعنى بالتفكير فى أحسن الطرق لمعاقبة الثوار ، فسيصلى بعض الثوار ناراً حامية من أفواه المدافع (كما حدث تاريخياً) وسيحصد البعض الآخر بنيران البنادق فى ميدان المدينة . ولقد نما تفكير الحالم فى الإجراء الثانى . وكان يتساءل عما إذا

(١) Freud, An autobiographical Study, p. 84

(٢) Introductory Lectures on Psycho-analysis p. 223

(٣) Jones, Papers on Psycho-analysis, p. 215.

كان هناك ضرر على السكان من شظايا القنابل عندما أفاق على هدير مياه خزان .

وهذا الحلم يبدو أنه استجابة لمؤثر حسى ؛ ولكن الجزء الثانى منه استثار ذكريات وقعت منذ ست عشر عاماً بعيداً عن انجلترا . ويظهر فى هذا الحلم رغبة الحالم فى الانتقام من الألمان لشنهم حرب الغواصات على انجلترا فى صورة إخماد للثورة الهندية فكما تمكن الإنجليز من إخماد الثورة الهندية سيتمكنون أيضاً من غلبة وهزيمة الألمان . ففى هذا الحلم يظهر الدور الذى لعبه المؤثر الحسى ولكن ينبغى ألا ننسى أن الحلم يرمى فى نفس الوقت إلى رغبة الحالم فى الانتقام من الألمان .

وفى الإمكان سرد أمثلة عديدة تكشف لنا عن أن هدف الحلم تحقيق رغبة ما ولنذكر هذا الحلم الذى قام بتفسيره Ferenczi (١) . رأت إحدى السيدات فى نومها أنها تخنق كلباً صغيراً أبيض اللون . وعلى الرغم من أن المضمون الصريح للحلم مألوف . إلا أنه كان مبعث حيرة للحالمة . وهنا استعانت الحالمة به ليكشف لها عن معنى الحلم . وأثناء التحليل ذكرت الحالمة حبها للطهى وخاصة طهى الحمام والكتاكيت . وكانت تلجأ فى ذبحها إلى لى رقبتها الأمر الذى كانت تشعر معه باشمئزاز شديد . ولذا كانت تنتهى من هذه العملية بأقصى سرعة ممكنة . ولقد ذكرت الحالمة عند ذكرها هذه النقطة بالذات أنها فعلت فى حلمها بالكلب ماتفعله بالكتاكيت .

واستطردت الحالمة بعد ذلك إلى طريقة الشنق وشعور المحكوم عليهم بالإعدام مما أثار شكوك المحلل فسألها عما إذا كانت تحمل ضغينة لشخص ما . ولقد أكدت الحالمة صحة شكوكه فذكرت أنها تتضايق من تدخل أخت زوجها فى علاقتها بزوجها ، وانتهى بها الأمر إلى طردها من منزلها قائلة لها : اخرجى . إننى لا أريد كلباً ينهش فى بيتى » . والرغبة التى يهدف إليها الحلم واضحة وهى رغبة الحالمة فى التخلص من أخت زوجها .

ولكن ما المنهج الذى اصطنعه فرويد فى تفسير الحلم ؟ منهج التداعى التلقائى . فعلى الحالم أن يترك نفسه على سجيتها دون أية محاولة من جانبه للتعديل والتحوير ، وأن يتخذ الاتجاه العقلى الذى يساعده على عملية التوقع التأملى meditative expectancy . وعلى الحالم أيضاً أن يقدر تمام التقدير جميع أجزاء الحلم ويذكر بدقة الأفكار والمعانى التى تتداعى تلقائياً بالنسبة لكل جزء من أجزاء الحلم . ومن المهم

(١) Ferenczi, "The Psychological Analysis of Dreams". in the American Journal of Psychology, vol. XXI, No 2, April, 1910, p. 322.

بل من الضرورى لنجاح منهج التداعى التلقائى أن يتجنب الإنسان كل محاولة من شأنها التعديل أو الإضافة . فيجب على الحالم أن يعطى تقريراً أميناً لكل جزء من أجزاء الحلم مهما بدت تفاهته . وهذه الأفكار — التى يتكشف عنها التحليل — ستتلاقى فى نظام من الأفكار يهدف إلى تحقيق رغبة . ومجموعة الأفكار التى يكشف عنها التداعى التلقائى تكون مايسمى بالمضمون الكامن أو معنى الحلم .

وإذا كان فرويد يقول إن كل حلم يكشف عن تحقيق رغبة . فهناك طريقتان للكشف عن صحة هذا الرأى الذى يبـــدو غريباً : الطريقة الأولى هى التحليل المباشر للأحلام التى تبدو فى تعارض ظاهر مع هذه النظرية وأن يظهر التحليل حقيقة أن الحلم يتكشف عن تحقيق رغبة أو على الأقل يتطلبها . والطريقة الثانية هى البدء بأحلام بسيطة تبدو فيها الرغبة سافرة دون تحليل ثم نتدرج إلى الأحلام التى يتزايد فيها أثر عملية التعديل الذى يصيب الحلم ، كما فى الأحلام الغامضة والأحلام التى يصاحبها الضيق distressing dreams لنرى هل فى الإمكان ردها إلى نفس الصيغة التى تفيد أن كل حلم هو تحقيق لرغبة . ولقد استخدم فرويد كلا المنهجين فى كتاباته المختلفة ولكننا سنسير على هدى الطريقة الثانية التى تبدأ من الأحلام الواضحة إلى الأكثر تعقيداً وسنبدأ بأحلام الأطفال . يروى فرويد قصة طريفة عن صبى كان مكلفاً بحمل سلة من « الفراولا » إلى جده ، هديته فى عيد ميلاده . فسمع ذلك الصبى فى نفس الليلة يتمتم فى حلمه « لقد أكل جونى الفراولا جميعها » . فعوض الحلم الطفل وحقق له أمانيه ، وفى هذا المثال يبدو تحقيق الرغبة واضحاً . وكثير من أحلام البالغين لا تقل وضوحاً فى الكشف عن الرغبات عن أحلام الأطفال « وهذه هى الأحلام التى ألفناها طوال حياتنا والتى تحدث عن ضغط الحاجات الجسمية كالجوع والعطش والرغبة الجنسية » (١) .

ويستنتج فرويد من بحثه لأحلام الأطفال عدة نتائج على درجة بالغة من الأهمية . فيلاحظ أولا أن هذه الأحلام تكاد أن تكون خالية من التحريف ، ويلاحظ ثانياً أن أحلام الطفولة ليست هراء وإنما تهدف إلى معنى وتكشف عن رغبة لم تتحقق فى عالم الواقع ، ويلاحظ ثالثاً أن أحلام الأطفال هى ردود أفعال لحوادث وقعت لهم فى اليوم السابق وتركت وراءها آثاراً من القلق أو التوقع ..

---

(١) Introductory Lectures on Psycho-Analysis p. 110

وإذا كان فرويد يقرر أن للمؤثرات الحسية أثراً فى تكوين الحلم إلا أن هذا الأثر ليس جوهرياً . ويجد فرويد فى أحلام الأطفال شاهداً قوياً على أن المؤثرات الحسية ليست جزءاً أساسياً فى الحلم لأننا لا نجدها فى أحلام الأطفال إلا نادرا . وليس معنى هذا إغفال أثر هذه المؤثرات العضوية وإنما كل ما يرمى إليه فرويد هو بيان أن المؤثرات العقلية هى السبب الفعال فى نشأة الحلم . ويقول فرويد فى هذا الصدد : « إذا كانت الأحلام [1] ردود أفعال للمؤثرات العقلية فإن قيمتها تكمن فى قدرتها على تصريف التهيج مما يترتب عليه زوال هذه المؤثرات واستمرار النوم . ونحن لا نستطيع أن نعرف كيف يحدث هذا التصريف من الوجهة الديناميكية ولكنا نلاحظ بوجه مباشر أن الأحلام ليست مقلقة للنوم (وهذا هو الاتهام الموجه إليها) ولكنها حارسة عليه وتعمل على تخليصه من المؤثرات المقلقة »

ونحن إذا ما عقدنا المقارنة بين الحلم والفعل المرضى المضطرب لوجدنا مماثلة تستوقف النظر . فالفعل المضطرب إنما هو توفيق يحدث عن التداخل الحادث بين دافعين : الدافع المعطَّل disturbed tendency والدافع المعطِّل . وتندرج الأحلام تحت نفس المقولة . فالميل المعطَّل هو الرغبة فى النوم والميل المعطِّل يتمثل فى المنبه العقلى الذى يمكن تسميته بالرغبة التى تكدح فى سبيل الإشباع ما دمنا لا نعرف حتى الآن أى مؤثر يعوق النوم . وهنا نجد مرة أخرى أن الحلم هو نتيجة التوفيق : إننا لا ننام ومع ذلك نشعر بتحقيق الرغبة ، وتحقق الرغبة وفى الوقت نفسه ننام .

ولكن كيف يفسر فرويد الأحلام المصحوبة بضيق ؟ هذه الأحلام التى تحقق المخاوف أكثر مما تحقق الرغبات ما دام يقول إن كل حلم يتكشف عن تحقيق رغبة : وكيف يفسر أيضاً « الكابوس » حيث بلغ طابع الضيق المصاحب للحلم أقصى ذروته ؟ يعتقد فرويد إن فى إمكانه تفسير هذه الأحلام عن طريق فكرة « الرقيب » . ولعل فى الحلم الغريب الذى تذكره الدكتورة فراوهج هلموت ما يعطينا فكرة واضحة عن معنى الرقيب عند فرويد . رأت هذا الحلم امرأة كبيرة تبلغ من العمر خمسين عاماً . وقد مات زوجها منذ ١٢ سنة وكان يشغل وظيفة ضابط كبير بالجيش . وقد حدث لها هذا الحلم عند ما كان ابنها فى جبهة القتال . رأت السيدة فى نومها أنها ذهبت إلى المستشفى العسكرى وأبدت رغبتها فى

(١) Introductory Lectures on Psycho-Analysis p. 107.

مقابلة كبير الأطباء لأنها تبغى عرض خدماتها على المستشفى . ولقد فهم الحارس من لهجتها خاصة بعد أن ضغطت على كلمة خدمات أنها تعنى الخدمة الغرامية love-service . فتردد ولكنه سرعان ما سمح لها بالدخول . ودخلت الحالمة غرفة كبيرة حيث وجدت عدداً كبيراً من الضباط والأطباء جالسين حول مائدة . وتوجهت إلى أحد الأطباء الجراحين وعرضت عليه اقتراحها قائلة : « أنا وعدد كبير من نساء وفتيات فينا مستعدات . . . . . ومع استمرارها فى الحلم إلا أنها سمعت دمدمة . . أن نهب أنفسنا للجنود والضباط والخاصة دون ما تمييز . . وعم المكان صمت رهيب . وهنا وضع الطبيب الذى يحدثها ذراعه حول خصرها قائلا : « سيدتى العزيزة لنفرض أننا قبلنا فعلا . . . . . وهنا سمعت مرة ثانية دمدمة وانفلتت الحالمة من ذراع الطبيب وهى تتمتم « كلهم سواسية » ثم أجابت : « يا إلهى إننى امرأة مسنه وقد لا يتفق لى أن أكون فى مثل هذا الوضع فضلا عن أن حالتى يجب أن تراعى فهناك اعتبار السن فيجب على أمرأة مسنة مثلى ألا . . . وهنا تسمع الحالمة دمدمة . . . . . مع شاب فى عنفوان شبابه إن هذا لفظيع . وهنا قال الطبيب : « إنى فاهم ما تعنين جيداً يا سيدتى » وأراها السلالم التى تفضى إلى حجرة كبير الأطباء . وبينما تصعد السلالم إذ سمعت أحد الضباط يقول « هذا عزم عظيم وسواء أكانت المرأة صغيرة أم كبيرة فلها كل الفخر »(١)

وتنجلى فى هذا الحلم ظاهرة أخاذة وهى استبدال الدمدمة بالفقرات الثلاث التى لا تتفق مع الشعور الخلقى للحالمة . ولا يرجع فرويد هذه الظاهرة إلى محض الصدفة والاتفاق بل يرى أن الشعور الخلقى كان يعمل بصورة ضعيفة أثناء النوم مما ترتب عليه حدوث مقاطعة تستوقف النظر فى النقط البشعة . ويشبه الحلم فى صورته المشوهة الصحف أثناء فترة الحرب حيث تبدو المسافات البيضاء رمزاً لما حذفه الرقيب . وقد ينجح الصحفى فى الاحتيال على الرقيب بنشر الخبر فى عبارة غامضة يشم منها المعنى الذى يقصده . ويرى فرويد أن « إخماد » هذه الفقرات الثلاث الخارجة عن الأدب مرده إلى أثر الرقابة النفسية الداخلية .

ولكن ما الذى يعنيه فرويد بالرقيب ؟ لا يعنى فرويد بالرقيب أية وحدة أو

---

(١) Intrepretations of dreams, 148 (Note). I. L., pp. 114-115.

ملكة[١]. وكل ما يعنيه فرويد بالرقيب مجموعة الدوافع التى تسيطر على شعور فرد معين بالقدر الذى تستطيع معه هذه الدوافع أن تكبح وتكف الدوافع المعارضة لها وأن تردها إلى اللاشعور. ومما يجب ملاحظته فى هذا المقام أننا نمارس هذه الوظيفة الكابحة بطريقة شعورية فى الطفولة ثم ما تلبث أن تصبح هذه الممارسة أوتوماتية وبعدئذ تصبح لاشعورية ويحل الكبت محل الإخماد. ولا يقتصر عمل الرقيب على إرسال الدوافع والرغبات المعارضة عند حلولها فى الشعور إلى اللاشعور — بل إن وظيفته المانعة تبدأ قبل أن تصبح هذه الدوافع مشعوراً بها.

وعلينا أن نحدد بالدقة ما نقصده بالإخماد suppression والكبت repression والرقيب. نعنى بالإخماد الكف الشعورى المقصود وبالكبت الكف اللاشعورى. ولا تشير إحدى ها تين الكلمتين إلى توقف عملية الكف على القيم الخلقية. ويجب علينا أن نلاحظ من ناحية أخرى أن لفظ « الرقيب » لا يشير أية إشارة إلى شعورية أو لاشعورية عملية الكف؛ وكل ما فى الأمر أنه يسمح للأفكار التى تتسق مع القيم الخلقية بالنفوذ إلى الشعور.

وحلم الخدمة الغرامية يكشف لنا عن عمل الرقيب كما أن فى الإمكان الاستدلال على وجوده أثناء عملية التحليل. فالمحو الذى نجده فى صورة الحلم والمقاومة الداخلية التى يشعر بها المرء إزاء عملية التداعى التلقائى والاعتراضات التى يبديها المريض بإزاء الإيحاء، كل هاتيك الظواهر إنما تكشف وتبرهن على وجود الرقيب. وتحدث هذه المقاومة كلما شعر الشخص أن فكرة على وشك البزوغ من اللاشعور. ويتطلب إدماج فكرة الرقيب فى إطار المذهب الفرويدى تغييراً فى صيغة الحلم التى فرغنا سابقاً من تقريرها. وبناء على هذا، لن يكون الحلم مجرد توفيق بين الرغبة فى النوم وفكرة أخرى تحول دونه. فإن هذا التفسير يكفى فى الحالات البسيطة. ولدينا الآن ما يبرر القول بأن الحلم نتيجة لتداخل قوى ثلاث: الرغبة فى النوم؛ ورغبة تتفاوت درجة إيلامها قد حيل بينها وبين الظهور؛ والرقيب. وحيث أن الرغبة المؤلمة لا تستطيع أن تتخطى حدود الرقيب. فإنها لا تستطيع أن تكشف عن نفسها إلا بآثار غير مباشرة أى بإشارات وتلميحات يتفاوت حظها من الوضوح والغموض. وهنا نجد أنفسنا بإزاء صيغة أو قانون جديد للحلم « الحلم تحقيق مقنع لرغبة مخمودة أو مكبوتة ».

(١) I. L., p. 118.

وتمكن هذه الصيغة الجديدة فرويد من الرد على نوعين من الاعتراضات . الاعتراض الذى يقول باستحالة عزو بعض الأحلام التى تبدو طبيعتها غير مفهومة إلى علل نفسية حقيقية ،والاعتراض الثانى الحادث من الانفعالات المؤلمة الصاحبة لأحلام كثيرة .

ومن الخطأ الزعم بأن فرويد يعتقد أن الرقيب وحده هو السبب الوحيد الذى يرجع إليه الصورة غير المفهومة التى تبدو بها بعض الأحلام . فمعظم الميكانيزمات التى تسير الحلم من تكثيف وتجسيم ورمزية وتعديل ثانوى يمكن أن تعمل وحدها مستقلة عن الرقيب . وميكانيزم الإبدال هو الميكانزم الوحيد الذي ينسبهفرويد دائماً إلى الرقيب . وإذا كان من الصعب وضع حدود فاصلة بين ميكانيزمات الحلم فإن فكرة فرويد عن « الرقيب » تبدو أقل صرامة مما يظن المرء ؛ ولكنا فى الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر أن فرويد قد أكد من قيمة الدور الذى يحدثه الكبت والرقيب فى تشويه صورة الحلم . ففى حلم « خنق الكلب الأبيض » سيقرر فرويد حتما أن الرقيب قد لعب دوراً هاماً فى صورة الحلم . فقد حالت القوانين دون ظهور رغبة المريضة فى قتل أخت زوجها سافرة . وإن الأفكار الخيالية المرتبطة بفكرة القتل التى ظهرت أثناء التحليل لدليل قاطع على وجود هذه الميول . وتحليل هذا الحلم قد كشف عن دوافع غريزية عنيفة . ويرى فرويد أن هذه الدوافع الغريزية العنيفة ليست غريبة عن عالم الحلم . ولا يقتصر الأمر على ذلك بل إن نسبة كبيرة من الرغبات المكبوتة التى تتحقق فى أحلام البالغين ترجع فى صميمها إلى أيام الطفولة . وهى فى صميمها أحلام جنسية لأن الحياة الجنسية تبدأ عند الطفل فى وقت أكثر بكوراً مما يظنه العلماء . وتجد الميول الجنسية موضوعها الخارجى الأول فى الوالدين ثم تتعرض لكبت شديد نتيجة لثقافة المرء وتربيته وتكشف هذه الرغبات الجنسية عن نفسها فيما بعد . ويكون انجذاب الأبناء نحو الجنس الآخر (١) من والديهم مصحوباً بالكراهية والحسد . بيد أن هذه الرغبة المكبوتة من جانب الأبناء نحو الجنس الآخر من والديهم تجد ما يحققها فى عالم الأحلامعن طريق موت الأب أو الأم حسبما تقتضيه الظروف . وإذا ما عرفنا أن فكرة الموت عند الأطفال فكرة غامضة وتكاد تناظر فى أغلب الأحيان فكرة الغياب المستمر permanent absence فإن هذا الرأى لن يبدو بالشناعة التى نتصورها . ومما لا شك فيه أن المفكرين قد

(١) عقدة أديبوس

بالغوا فى استواء العاطفة العائلية . فانفعالات الكراهية التى تستثار فى المحيط العائلى غالباً ما تكون عنيفة وإن لم يكن هذا فى جميع الحالات . وكلما شب الطفل تختفى هذه الانفعالات وتفسح المجال لنمو العاطفة فى أشكال يقبلها المجتمع .

ويبدو من الغرابة بمكان أن تستطيع رغبة لا خلقية كالرغبة فى موت أحد الوالدين الإفلات من الرقيب وأن تؤدى إلى تحقيق الحلم . فهناك حقيقتان تفسران هـذا الأمر بسهولة . فنلاحظ أولا أن فكرة التخلص من أحد الوالدين هى آخر فكرة فى الوجود يمكن أن تخطر على بالنـا ولا يمكن أن نرحب بها بأية حال من الأحوال . ونلاحظ ثانياً أن تحقيق هذه الرغبة فى الحلم يكون مصحوباً بانفعال الأسف العميق الذى يمكن تفسيره بدرجة كافية بشعور القلق من أجل سلامة الشخص الذى يحسه الحالم إحساساً حقيقياً فى أوقات قريبة خاصة فى اليوم السابق لوقوع الحلم . والمصدر الحقيقى للشعور بالأسف العميق أن الفكرة قد أفلحت فى التغلب على مقاومة الرقيب .

وإذا كان الحـلم حقاً يرمى إلى تحقيق رغبة فكيف نفسر الانفعالات المؤلمة التى تصاحب بعض الأحلام ؟ يرجع السبب فى ذلك — فيما يرى فرويد — إلى أن الرقيب لم ينجح تماماً فى عملية التعـديل . فإن الأفكار الكامنة التى ولدتها مشاغل اليقظة كانت شديدة الإيلام . فلقد جاهد عمل الحلم dream-work فى سبيل نقل هذه الأفكار واستبدال أخرى بها تكون أكثر إشباعاً ، ولكن الانفعالات أكثر صعوبة فى نقلها من الصور الحسـية ، ولهذا السبب تعترضنا هذه الظاهرة المعضلة التى تبدو فى المضمون الظاهر لبعض الأحلام وأعنى بها أن الصـور ذات الطبيعة غير المؤلمة تكون مصحوبة بانفعالات مؤلمة . ولقد اتخذ خصوم فرويد من هذه الظاهرة وسيلة لنقض نظرية فرويد وهدمها ، ولكن فرويد لا يرى فى هذه الظاهرة ما يضعف من قيمة مذهبه لأن تحليل هذا النوع من الأحلام يكشف عن أن الصورة الكامنة قد استبدلت بها صورة أخرى عادية فى المضمون الظاهر للحلم . وإن التغاير الذى يظهر فى المضمون الظاهر بين الصور العادية — أى التى لا تستدعى بطبيعتها انفعالات مؤلمة — والانفعالات المؤلمة المصاحبة لها ليكشف عن أن عملية التعديل لم تتم . فلقد نجحت عملية التعديل فى فصل الطابع

(١) I. L., pp. 151-2.

التأثرى عن صورته وإبدالها بصورة ملائمة أو على الأقل بصورة عادية ولكنها فشلت فى كبت ونقل الطابع التأثرى .

ويضيف فرويد إلى التفسير السابق تفسيراً آخر يعلق عليه أهمية كبيرة . فمن المعروف أن تحقيق هذه الرغبة فى الحلم يكون مصدر لذة للحالم . ولكن ينبغى ألا تكون الرغبة التى نبغى تحقيقها متعارضة مع الرغبات الأخرى التى تفضلها الشخصية الشعورية . والفهم الواضح لفكرة الرقيب عند فرويد يساعدنا فى فهم هذه المشكلة . فإذا كانت الرغبات المكبوتة التى يعبر عنها الحلم مصدر لذة للجزء الحيوانى من الإنسان إلا أنها فى الوقت نفسه مصدر ألم وضيق للجانب السامى منه . وكثيراً ما تناسينا أن الإنسان كائن ثنائى تمزقه الرغبات المتصارعة . فيستجيب الرقيب للرغبة الحيوانية المنبعثة من أعماق اللاشعور بالضيق والقلق عندما لا يستطيع أن يسيطر على هذه الرغبات الحيوانية إلا بهذه الطريقة . وهذا ما يحدث فى الكابوس النفسى المنشأ . وهاك مثالا لكابوس نفسى المنشأ قام بتحليله الدكتور فلورنوى (١)

شخص أعزب فى التاسعة عشر من عمره . وكان يشعر بانجذاب عاطفى عميق نحو رجل آخر « ع » دون أن يكون هذا الأخير شاعراً به . وكان « ب » يود الزواج ولكنه يشعر باستحالة ذلك ما دام لا يفكر إلا فى « ع » . وفى الوقت الذى كان فيه (ب) يعانى صراعاً باطنياً عنيفاً عند ما سمع بخطوبة صديقه (س) لفتاة لم يكن يعنيه من أمرها شيئاً لو لم تحدث هذه الخطوبة ولقد أذهله هذا الخبر وأخذ فى المقارنة بين شقائه وسعادة صديقه « س » ولقد كان عليه أن يكتب لصديقه « ع » فى مسائل تختص بالعمل . وكان إذ ذاك يشعر بيأس شديد . وفى المساء أطلق ب العنان لأفكاره الجنسية التى تتملكه بازاء صديقه ع . وقبل النوم مباشرة أطلق ب العنان لأوهامه الغريزية . وتملكه إحساس قوى بأنه قد ينام مع « ع » فى سريره واحتضن كل منهما الآخر وتملكه .

وفى منتصف الساعة الرابعة استيقظ ب من نومه فجأة على هذا الكابوس وأخذ فى كتابته مباشرة بناء على إرشادات الدكتور فاورنوى . والجزء الأول غامض « أنا فى غرفة عرس أحاول عبثاً النوم مع خطيبة «س» التى خيل إلى فى ذلك الوقت

(١) Flournoy, "Symbolismes en psychopathologie", in Archives de Psychologie, vol XVII, p. 189

أنها زوجتى » والجزء الثانى واضح « أنا فى فراشى فى غرفتى المألوفة وفى الركن المقابل أرى « ع » راقداً فى فراش آخر . وقد تحدثت إليه ببعض الكلمات التى تكشف عن شعورى نحوه والتى تتضمن إشارة غامضة لعرض (مأرب جنسى) تقدمت به إليه . وفى هذه اللحظة قفز « ع » من فراشه عارياً اللهم إلا من قميصه كمجنون واندفع نحو النافذة ثم اتجه نحوى محاولا خنقى (سمعت أمس عن قصة مجنون حاول أن يخنق آخر) . ولقد عرفت فى الحال مصيرى . ولكنى لم أبذل جهداً لحماية نفسى ولقد شل الرعب كل جسمى . وقبل أن يلمسنى مباشرة قفزت من سريرى مرتاعاً ، ولقد شعرت برعب وخوف شديدين لم أشعر بهما من قبل عند رؤيتى لهذا المنظر الذى مر بسرعة البرق وشعرت بقشعريرة شديدة وكنت بارداً كالثلج . وبعد مضى ربع ساعة استعدت توازنى ودونت ما رأيته .

وهاك تفسير الدكتور فاورنوى . الجزء الأول يفسر نفسه بنفسه . ويحقق فيه « ب » رغبته فى الزواج عن طريق احتلاله لمكان صديقه « س » وامتلاكه لخطيبته . ولكن هذه المحاولات منيت بالفشل . وبعد هذه المحاولة الشاذة ، سادت الرغبة الغريزية الشاذة الموقف وكونت الجزء الثانى من الحلم الذى يبدو أكثر وضوحاً . فالفنطازيا الخيالية تحاول أن تظهر ثانية أثناء النوم الرغبات التى تملكته قبل النوم . فلقد تخيل « ب » قبل نومه مباشرة أنه يضم ويتملك موضوع حبه « ع » ولم تسمح شخصيته الحالمة ولا الشاعرة أن تذهب الأمور إلى أبعد من ذلك ودافعت عن نفسها بطرقها الخاصة . فبدلا من أن يخضع « ب » لميوله الشاذة فإنه استعار الدافع من حادثة قيلت له فى اليوم السابق لوقوع الحلم ليحل مشكلته بطريقة مؤثرة ولكنها فى الوقت نفسه لا تتضمن شيئاً معيناً بالنسبة للحالم أو لصديقه « ع » . فعلية أن يموت بين يدى محبوبه الذى أصبح مجنوناً .

ويتمثل فى الكابوس الصراع بين الرغبة والرقيب . وعلينا أن نميز بين ضربين من الكابوس النفسى المنشأ . النوع الأول وتبـــدو فيه الرغبة الجنسية فى المضمون الصريح للحلم كما فى الكابوس الذى ذكره الدكتور فاورنوى . والنوع الثانى الذى لاتظهر فى مضمونه الظاهر أى فكرة جنسية .

ويعتقد فرويد أن المضمون الصريح فى هذا النوع خداع بل ويؤكد أن الصور اللاجنسية التى تظهر فيه ما هى إلا صور مقنعة للرغبات الجنسية الكامنة التى تظهر بعد عملية تحليل الحلم . فيكون الشعور بالقلق كرد فعل للرغبة الجنسية

للكابوس الذى لا يظهر فى مضمونه الصريح أية صورة جنسية ومن ثم تكون صور المضمون الظاهر صوراً بديلة لا قيمة لها فى ذاتها للصور الجنسية . وإذا كان فرويد يقرر صراحة أن الرغبة التى يتكشف عنها الحلم ليس من الضرورى أن يكون رغبة جنسية إلا أنه فيما يختص بالكابوس النفسى المنشأ يلجأ مباشرة إلى التفسيرات الجنسية . ويذهب فرويد إلى أن القلق المصاحب لبعض الأحلام شبيه بالقلق المرضى المصاحب للعصاب الذى يحدث نتيجة لكون كبت الدوافع الجنسية لم يكن كاملا . ومع ذلك فإن فرويد يقرر أن أى خطأ سواء أكان داخلياً أم خارجياً يحدث القلق إلا أنه يميل إلى التقليل من شأن هذه الدوافع اللاجنسية .

ويجب ألا نفهم أن المضمون الكامن للحلم يقتصر على الرغبات وحدها فإن فرويد يقرر صراحة أن هناك ضروباً متنوعة من النشاط النفسى من تدبير وتوقع وتحذير ومحاولة حل المشاكل . وإذا ما فسرنا نظرية فرويد بدقة فإنها تنحصر فى تأكيد القول بأن الاتجاه الذى تأخذه عملية التعديل فى سيرها من المضمون الكامن إلى الصريح إنما تتحدد وتتعين « بالرغبة » التى يهدف إليها الحلم .

وعام ١٩٢٠ خفف فرويد من حـــدة نظريته فى تحقيق الرغبات . فأكد الحقيقة القائلة بأن أحلام المرضى الذين يعانون من عصاب ناشىء عن صدمة هى عادة من آثار الحادث الذى كان سبباً فى العصاب . ولكن هذا التعديل لا يتسق مع نظريته[١] ولقد دفعته اعتبارات أخرى إلى القول « بوجود ميل » لا يقاوم للإعادة والتكرار فى الحياة النفسية وهذا الميل ميل لا يخفل بمبدأ اللذة ويفوقه » وهذه الأهمية المعطاة لآلية التكرار تتضمن تعديلا جوهرياً لآراء فرويد وتقلل من شقة الخلاف بين مذهبه والمذاهب المقبولة فى تفسير الحلم . ولعل هذا يخفف من حدة نقد وليم براون لنظرية فرويد فى تحقيق الرغبات فيرى وليم براون أننا إذا استبدلنا « بالرغبة » الميول العاطفية[٢] والغريزية لاستقامت نظرية فرويد مع اتجاهات علم النفس الحديث .

ومن أمثلة الدوافع الغريزية المحافظة على الذات والخوف والاشمئزاز . وقد تندفع الأفكار المرتبطة بهذه الانفعالات والعواطف من الشعور إلى اللاشعور وتظهر ثانية فى ظروف خاصة فى الأحلام . ويذكر وليم براون للتدليل على صحة رأيه خبرة

(١) Beyond the Pleasure Principle, P.P. 8-10

(٢) W. Brown : Psychology & psychotherapy, p.p.-3534.

وقعت له منذ سنين وفيها يظهر أثر الخوف المكبوت الذى يكدح فى سبيل الظهور من اللاشعور إلى الشعور. ويقول: «عندما كنت ذات يوم فى الصيد سقطت مرتين متتابعتين، ولكن مما أدهشنى أننى لم أشعر فى حماسة الصيد باضطرابات عضوية كأثر من آثار الخوف. وفى تلك الليلة حلمت بكل ما حدث فى الصيد من البداية إلى النهاية مع شعورى بخوف شديد. وكان يعاودنى الخوف حتى بعد مرور شهور عديدة مع أننى لم أشعر بذلك مطلقاً أثناء النهار. ولم يظهر التحليل النفسى أى فكرة فى المضمون الكامن للحلم تفسر هذا الخوف. ومن الصعوبة تفسير هذا الحلم على أنه تحقيق لرغبة وإن كان يوضح الجانب الآخر من النظرية أعنى الكبت

وانتهى فرويد إلى أن الرغبات التى تحقق فى الحلم غالباً ما تكون جنسية، كما أن الرموز التى تظهر فى الحلم رموز جنسية. فقد لاحظ أن تداعى الخواطر بالغاً ما بلغت وجوه الاختلاف فيه باختلاف أفراده فان هناك أشكالا من التداعى يتفق فيها الناس جميعاً. ومن هنا وجدت رموز ثابتة تعبر عند جميع الشعوب عن أشياء بعينها، فالرجال يرمز إليهم عادة بالأشياء الطويلة أو الحادة مثل العصى والسكاكين بينما ترمز للمرأة الأشياء المجوفة من كهوف وسفن وخصوصاً علبة المجوهرات ولقد أظهرت التجارب التى أجراها الدكتور شروتر Schroter إمكانية صدق نظرية فرويد فى الرموز. فكان ينوم المختبرات تنويماً مغناطيسياً ويوحى إليهن بالفكرة الآتية « ستحلمين الآن بأنك تزاولين الجماع الجنسى مع أحد أصدقائك بالطريقة السوية أولا ثم بطريقة شاذة. وستنسين هذا الإيحاء وستحلمين بطريقة رمزية عن الجماع. وهاك أحد الأحلام التى رأته إحدى المختبرات.

« بعد ظهر يوم الأحد كنت فى انتظار صديقى لنحتفل سوياً بعيد ميلاده ولقد أحضر زجاجة من الخمر ملفوفة ببالطو. ولقد طلب منى أن أتناول كأساً فرفعت كأسى إلى كأسه حيث صب الخمر. ولكن انتابنى الذعر فجأة ووقعت الكأس منى فانكسرت وسالت الخمر على الأرض.

ولقد تضايقت كثيراً لتلوث السجادة، ولكنه طمأننى قليلا سأصلحها على الفور، أعطينى كأساً أخرى لأصب لك فيها. فجئت بأخرى حيث حاول أن يسكب فيها بعناية من الخمر الباقية فى الزجاجة. ولكن عند ما انسكبت أول قطرة من الخمر فى الكأس، جذب صاحبى الزجاجة بعيداً.

(١) Samuel Lowy, Foundations of Dream-Interpretation, p. 136.

ويروى صمويل لوى Samuel Lowy (١) أن هذه الرموز ليست ثابتة كما يزعم فرويد ويذكر أن بعض الأشياء الطويلة التى ظهرت فى بعض أحلام الانتصاب erection-dreams تكشف فى الوقت نفسه عن مضمون مخالف . ويتصل بهذا مشكلة المناظر الجنسية الصريحة التى تبدو فى الحلم. فمن المعروف أن يونج إلى حد ما بيير Bjerre يقللان من قيمة هذه المناظر الجنسية الصريحة ويفسرانها تفسيراً رمزياً ويحكى لنا بيير قصة رجل أقلع عن علاقاته الجنسية الصريحة . فصور الحلم العذاب النفسى الذى كان يعانيه فى صورة حلم من الأحلام الجنسية المثلية homosexual ولقد أكد بيير أن الحالم لايظهر عليه أية علامة من علامات الميل الجنسى المثلى وأن هذا التفسير هو التفسير الوحيد المقبول . ونحن أحرار فى قبول هذا التفسير أو التشكيك فيه لأننا فى موقف لا يسمح لنا بأى نقد . ويمكن أن نقول نفس القول بالنسبة لتفسير أدلر لعقدة المحارم incest-complex . فيرى أدلر أنها تهدف إلى نظام غائى أى أن تخيف المرء وتحفظه من العـــلاقات الجنسية التى يخشى نتائجها .

ويرى صمويل لوى أن من الصعب (٢) إثبات أو نفى الرأى القائل بأن الرغبة الجنسية الطفلية هى الدافع الحقيقى الخلاق للحلم كما ذهب فرويد . ويقرر أنه إذا كانت الخلية غير المخصبة خلية جنسية فإن الخلية الجنسية المخصبة هى بالفعل كائن حى . وإذا كان الكائن الحى يرجع فى وجوده إلى الخلية الجنسية إلا أنه فى الوقت نفسه كائن يختلف عنها . ومن هذا يبدو قصور نظرية فرويد فى تفسير الحقائق . ولكننا نكون بمأمن من الخطأ إذا ما عزونا أيضاً إلى عمليـــة الحلم وظيفة بيولوجية عامة .

وأهم نقد وجهه صمويل لوى لفرويد نقده فى قوله المشهور « الحلم يحقق رغبة » فإذا ما تحققت رغبة فى الحلم فمعنى ذلك إرضاء ملموس للرغبة . وكذلك الحال فى أحلام اليقظة التى تعوضنا عن متاعب الحياة ومصاعبها . ويرى لوى أن ظاهرة تحقق العقدة complex فى الحلم لا يغير أنها تناظر رغبة حتى ولو كانت رغبة مكبوتة . حقاً إننا نقول على سبيل الإيضاح أن المريض يكبت رغباته المحرمة فى هامش الشعور . ولكن هذا القول فرض ناجح بالنسبة لكثير من الحالات والعقد .

(١) Ibid. p. 137.

(٢) Ibid, p. 139.

ويعتقد لوى أننا نكون أكثر تحرياً للدقة إذا ما عرفنا أن هناك عناصر مقدراً (١) لها منذ البدء أن تكون فى مجال هامش الشعور . عناصر تحتفظ بها الشخصية الإنسانية وتود الاحتفاظ بها ولكن بشكل لا شعورى . ويكون تحقيقها فى مثل هذه الحالات هو الهدف الذى نهدف إليه ونشتاقه . وفى مجال اليقظة نشاهد مثل هذه الظاهرة فى تحقيق الرغبات الوهمية . فاننا كثيراً ما نتخيل لأنفسنا مواقف وحالات نتمتع بها كأوهام ولكننا لا نرحب إطلاقاً بتحقيقها فى الواقع . فمجال الأوهام هو المجال الذى ترغبه الخبرة الوجدانية . ويصدق هذا القول بالنسبة للعقد المرضية إذا ما فهمناها على أنها تشمل جميع العناصر التى كان عليها أن تكبت ما لو كانت عناصر شعورية . ولكن لوى لا ينكر أن هناك رغبات تتحقق فى الأحلام وهى الرغبات التى تسعى الشخصية جاهدة فى تحقيقها أثناء اليقظة . ونكون فى هذه الحالة بصدد تعويض أو خبرة بديلة substitute-experience تتمثل فى الحلم . ولكن هذه العناصر التى يجدها الحالم غريبة عليه ولا تتفق مع منازعه فى حياة اليقظة إنما تنتمى إلى عالم هامش الشعور .

ويشير لوى إلى ميكانيزم الحلم الذى افترضه وناقشه يونج فى محاضرته الموسومة بعنوان Dream Analysis in its practical . فلقد ذهب يونج إلى أن العاطفة الإيجابية الغلابة التى نشعر بها نحو شخص ما (ولقد استشهد فى مثاله بالأب المحبوب) يمكن أن تعوض فى الحلم ، بطريقة وصفية ، باتجاه سابى أى بالاحتقار . ويرى يونج أن الاتجاهين كلاهما يسيران بدرجة واحدة فى اتساق مع « قصد » المريض ويرميان كليهما إلى غرض . وأن هذا الميكانيزم ميكانيزم معدل معوض regulative and compensating mechanism . وفرض يونج فى جوهره فرض صريح فيما يرى لوى ويمكن أن نجد أيضاً مثل هذا التعديل بين القوى والاتجاهات المتعارضة antagonistic regulation فى عالم الهرمونات . وهذا التقابل ليس مجرد مماثلة وإنما يكشف عن علاقة علية لأننا نتساءل : ما الذى يكمن تحت اتجاهات الحب المفرط وهذا التعلق الطاغى فى حين أننا نجد من ناحية أخرى حاجة باطنية لإضعاف هذه الاتجاهات ؟ يمكن أن يكون الجهاز العصبى الهرمونى فقط neuro-hormonal apparatus هو الذى يؤثر على هذه الاستجابة المبالغ فيها (لأن الحب

(١) Samuel Lowy, Foundations of Dream Intrepretations p. 145s

ما هو إلا استجابة نفسية تحدث عن تأثير شخص ما على حاجتنا الغريزية للحب).
ويمكننا أن نؤكد أيضاً أن التنظيم العصبى النفسى يعدل فى اتجاه مضاد أى يحدث التوازن . فصورة الحلم التى يتجلى فيها الاتجاه السابى — اتجاه الاحتقار — يمكن النظر إليها على أنها مجرد تشخيص أى صورة تعبيرية للميل الداخلى المضاد .
ويخلص لوى أخيراً إلى رأيه فى الحلم : أن الحلم يحقق حاجات سيكوبيولوجية ولا يحقق دائماً رغبات .

عرضنا الآن لنظرية فرويد فى الحلم ولنظريات غيره من العلماء . وعلى الرغم من اختلافهم فى تفسير طبيعة الحلم إلا أنهم متفقون فى أن الحلم ظاهرة ترمى إلى غرض ، سواء كان هذا الغرض تحقيق رغبة صادقة أو التنفيس عن الميول الغريزية المكبوتة كما يرى وليم براون أو تحقيق حاجات سيكوبيولوجية .

كمال الدين عبد المجيد نايل